الحركة العلمية (في مصر والشام أثناء اجتياحات المغول للمنطقة في النصف الثاني من القرن (السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي)

فراس عبد الرحمن*

(الإيداع: 8 أيار 2022 ، القبول: 8 آب 2022)

الملخص:

هذا البحث هو لمحة معبرة عن استمرار نشاط الحركة العلمية في بلاد الشام ومصر على الرغم من الظروف السيئة التي مرت بها المنطقة في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، تناول البحث عوامل نشاط هذه الحركة، والأوضاع السياسية، وانتقال مركز الحضارة والعلم من بغداد إلى دمشق واستقرارها في القاهرة، وتمت الاشارة للعلماء وحركة التأليف التاريخي آنذاك، وما تركوه من تراث حضاري كبير.

الكلمات المفتاحية: مصر، الشام، العلم، العلماء، التعليم، الحروب، الأوضاع الأمنية، الحروب العسكرية.

* دكتوراه في التاريخ الإسلامي، محاضر في جامعة حماة

Scientific Movement in Egypt and the Levant during the Mongol invasions of the Region

Feras Abdul Rahman*

(Received: 8 May 2022, Accepted: 8 August 2022)

Abstract:

This research is an overview of the continuation of the activity of the scientific movement in the Levant and Egypt, despite the bad conditions that the region experienced at that time.The research dealt with the factors of the activity of this movement and the political situation in the second half of the 17 th century AH/13 th century AD and the movement of the civilization and science from Baghdad to Damascus and its establishment in Cairo .Reference was made to scholars and the historical authorship movement at that time.

*PhD in Islamic History, Lecturer at Hama University

1- المقدمـــة:

شهدت البلاد العربية – الإسلامية في منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي سلسلة من الاضطرابات السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية، وتلقَّت تلك البلاد ضربة كبيرة، وكادت تُطمس حضارتها العلمية على يد المغول، وعانت – لاسيما الشام– الويلات الكثيرة، وعلى الرغم من كل هذا فقد ظهرت في مصر والشام حركة علمية كبيرة، هدفت إلى إحياء التراث العربي– الإسلامي القديم واستمراره في أداء رسالته التي أُنيطت به. وأتت هذه الحركة رفضاً لواقع الأمة العربية الإسلامية التي كانت تعيش أسوأ مراحلها، ومحاولةً من هذه الأمة في المحافظة على تراثها ولإعادة ثقتها بذاتها، واستجابةً للتحدي الحضاري الذي تعرّضت له، ولتبعث نوعاً من اليقظة التي تجسد الأخطار السياسية والأحداث العسكرية التي تهددها. ومن هذا الباب يُفهم كثْرة الحديث عن التراث والماضي الزاهر، ويُفهم لماذا أَلَّف المؤلِّفون وصنَّف المُصنِّفون، وجَمَعَ الموسوعيون، ونسخَ الناسخون، ورحل الرحالة، ووعظ الواعظون.. وعليه كان من الطبيعي في تلك المرحلة أن يتنامى علم التاريخ ويبلغ ذروته وتتعدد اتجاهاته، ويأخذ ملامحه الأساسية، وتزداد أهميته، ليبلغ درجةً غدا بها جزءاً أساسياً من الثقافة الشعبية العربية – الإسلامية.

2- أهمية البحث

تسليط الضوء على الحركة العلمية قديماً وحديثاً، وأن هذه الحركة ليست بالضرورة أن تكون مقترنة أو تابعة لتقلب الأحداث السياسية والأمنية، فبلاد الشام عاشت في تلك المرحلة (النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) ظروفاً سياسية وعسكرية وأمنية غاية في الصعوبة، إلا أن ذلك ليس مسوغاً لتراجع الحركة والنشاط العلمي، فقد استمرت مصر والشام في تقدمهما وانجازهما العلمي، وخُطت بهما العديد من المخطوطات العلمية ومن هذا الباب ندعو الباحثين العرب للعمل على ابراز الشخصية العربية واثبات وجودها من خلال المحافظة على التراث العربي وتكثيف الجهود وتحقيق الإنجازات العلمية .

3- أهداف البحث:

1- إلقاء الضوء على أهمية الإرث والتراث الثقافي والحضاري، والمحافظة عليه بكل السُبل الممكنة.

2- إلقاء الضوء على جهود مصر وبلاد الشام في المحافظة على الشخصية العربية العلمية على الرغم من الظروف السيئة التي كانت ترزح تحتها تلك البلاد آنذاك.

3- بعث الهمم في نفوس الباحثين العرب لإعادة احياء تراثهم ومجدهم السابق وانجاز بحوث علمية جديدة تثبت كيان الأمة العربية الإسلامية وتبعث الروح بها من جديد وصولاً لعالم عربي – إسلامي متقدم، ومن ثم اعادة أمجاد الأمة العربية والإسلامية.

4- اعادة نشر التراث العربي– الإسلامي والمخطوطات العربية القديمة التي تؤكد على سمو الشخصية العربية والإسلامية، إذ أن هناك كثير من المخطوطات العربية لم تُنشر بعد، واعادة النظر في بعض المخطوطات التي نُشرت من قبل.

5- عدم الركون أو قبول الأوضاع السيئة التي يعيش فيها العالم العربي الإسلامي، والتمرد بسلاح العلم على هذا الواقع نحو مستقبل أفضل وأكثر ازدهارا.

6- إبراز أهمية الدراسات التاريخية في المحافظة على شخصية الأمة.

أولاً: لمحة عن الأوضاع السياسية والأمنية في النصف الثاني للقرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي

شهدت بداية هذه المرحلة من تاريخ الأمة العربية– الإسلامية تطورات وتحولات كبيرة على كافة الصُعد، ومرَّت الأمة بأحلك ظروفها، فالأيوبيين غرقوا بجملة من المشاكل الداخلية فيما بينهم، والخطر المغولي من الشرق أصبح قريباً من بغداد – دار الخلافة–، والاعتداءات الصليبية من جهة الغرب بدت مخيفة مع حملة لويس التاسع – الحملة الصليبية السابعة–؛ لذا كان

على الأمة العربية– الإسلامية أن تحافظ على كيانها، وتُثبت وجودها، وتؤمّن الحماية لنفسها، وتتغلب على هذه الإرهاصات والتحديات العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية، وغيرها...

ومن هذا الباب يُفهم كيف أن العرب– المسلمين قبلوا بحكم المماليك الذين تمكنوا من تحقيق نصر كبير على الصليبيين في معركة المنصورة عام 647هـ/1250م، وأحبطوا ما سميّ بالحملة الصليبية السابعة[1]؛ فكان هذا النصر قاعدة كبيرة لتأسيس حكمهم في المنطقة بدءاً من عام 648هـ/1250م، ودعموا حكمهم لها بما حققوه من نصر كبير على المغول في معركة عين جالوت سنة 658هـ/1260م، وأضفوا الشرعية على حكمهم بجملة من الأعمال والإصلاحات الداخلية كان أهمها إحيائهم للخلافة العباسية في القاهرة على يد بيبرس سنة 659هـ/1261م[2]. هنا ظهر المماليك على أنهم قوة أساسية صاعدة في المنطقة، وبلغت هذه الدولة درجة من القوة هابها أعظم قوتين في المشرق العربي– الصليبيون والمغول، إذ أصبح المماليك بعد تحقيقهم وحدة بلاد الشام ومصر على يد الظاهر بيبرس متفرغين لقتال الصليبيين، بالإضافة لمواجهة اعتداءات المغول المتكررة. مما دفع الصليبيون للاتصال بالمغول في محاولة منهم للإطباق على المسلمين، إلا أنها كانت محاولة مخفقة[3].

وتمكَّن العرب – المسلمون خلال عقود أربعة من تحقيق انتصارات كبيرة على الصليبيين أسفرت هذه الانتصارات عن زوال الوجود الصليبي من المنطقة، وكانت القيادة للمماليك آنذاك، وبشكل خاص الأشرف خليل بن قلاوون (689–693هـ/1290–1293م)، الذي تمكن من تحرير عكا آخر الإمارات الصليبية في المنطقة سنة 690هـ/1291م[4].

وعلى الجبهة الشرقية استمر التوتر، وكان كبيراً بين المماليك والمغول بعد معركة عين جالوت، فالمغول استمروا في نشاطهم وقوتهم العسكرية، وتكررت اعتداءاتهم على بلاد الشام، ولهذا الغرض تحالفوا مع أرمينيا الصغرى، ومع ذلك فإن المماليك تمكنوا من تحقيق انتصارات كبيرة عليهم، وطردوهم خارج الشام، وزاد على ذلك السلطان الأشرف خليل بأن أراد استرداد العراق منهم و"**كتب إلى نوابه في بلاد الشام بالاستعداد وتجهيز الجيوش**" لذلك[5].

هذا يعني أن العلاقات السياسية بين مغول فارس والمسلمين كانت سوف تشهد مرحلة جديدة ومهمة وربما قد تكون خاتمة للوجود المغولي في بلاد العرب، على شاكلة الوجود الصليبي، وبدا الأشرف جاداً – كل الجِدّ– في سياسته هذه تجاه المغول، إلا أنَّ المنيَّة لم تمهله حتى ينجز مشروعه الجديد على الجبهة الشرقية، وسقط قتيلاً ضحيةً لغضب حاشيته عليه سنة

---

[1] للمزيد عن هذه المعركة وعن الحملة الصليبية السابعة ككل راجع: اليونيني، موسى: ذيل مرآة الزمان، تح: سالم كرنكوي، دار الكتاب الإسلامي– القاهرة، ط2، 1413هـ/1992م، ج2، ص206–212. الدواداري، أبي بكر بن عبد الله بن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر– الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تح: سعيد عاشور، القاهرة، 1391هـ/1972، ج7، ص366–367. المقريزي، أحمد بن علي، ت845هـ: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عطا، دار الكتب العلمية– بيروت، ط1، 1418هـ/1997م، ج1، ص446–457، 460. عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1963م، ج2، ص1052–1097. الصّلابي، علي محمد: المغول بين الانتشار والانكسار، الأندلس الجديدة– مصر، ط1، 1430هـ/2009م، ص277–278.

[2] ذيل مرآة الزمان: كرنكوي: 453/1–457، 211/2–212. الدوادار، بيبرس المنصوري ت725هـ: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تح: عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1407هـ/1987م، ص47–48. طقوش، محمد سهيل: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس– بيروت، ط1، 1418هـ/1997م، 94–95. زيتون، عادل: تاريخ المماليك، جامعة دمشق، ص29–30.

[3] زكار، سهيل: العالم الإسلامي في العصر المغولي والأحلاف الصليبية المغولية، كتاب لم ينشر بعد، ص221–258.

[4] عن تحرير عكا وما لحق بها، انظر مخطوط ذيل مرآة الزمان: نسخة جامعة ييل– أمريكا، رقم H 139، 140، ج11، ورقة 41– ظ. ابن تغري بردي، يوسف، ت874هـ: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية– بيروت، ط1، 1413هـ/1992م، ج8، ص5–6. التحفة الملوكية: 126–127. الفارس الداوي، جيرارد أوف مونتريل: أعمال القبارصة، تر: سهيل زكار، دار التكوين– دمشق، ط1، 2008م، ص133–151. ابن أبي حجلة، أحمد بن يحيى التلمساني، ت 776هـ: سكردان السلطان، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي– القاهرة، ط1، 1421هـ/2001م، ص56. الموسوعة الشاملة: 446/3. سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي– مصر، ص241–243.

[5] حوادث الزمان: 59/1. السلوك: 242/2. المقريزي: المقفى الكبير، محمد اليعلباوي، دار الغرب الإسلامي– بيروت، ط1، 1411هـ/1991م، ج3، ص803–804.

693هـ/1293م. فساد الهدوء بين الطرفين حتى سنة 699هـ/1299م حيث تمكن المغول بقيادة غازان[1] في هذا العام من غزو بلاد الشام ووضعها جميعها تحت قبضته وأحكم السيطرة عليها[2]، إلا أن المماليك تمكنوا من تحريرها في السنة التالية، واستمرت المعارك سجالاً بين الطرفين، حتى عام 721هـ/1321م حيث تم الصلح بينهما وعَظُمَ ما بينهما من الصداقة والمودة [3].

ومهما يكن من أمر فالعلاقات كانت أكثر من مضطربة ومتوترة بين الطرفين بسبب تقلُّب المغول المذهبي، وعدم استقرارهم الديني، وكانت الضحيَّة في كل ذلك بلاد الشام. فقد عاشت ظروفاً غير تلك التي كانت في مصر، وبقيت بين أخذ ورد من قبل المماليك والمغول، وعانت الويلات الكثيرة خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

وبغض النظر عن وضع المماليك وظروفهم مع استمرار المغول في قوتهم ونشاطهم؛ فإنّ المماليك غالباً ما انسحبوا من بلاد الشام– ولو بشكل مؤقت– أمام تهديد المغول وتركوها تواجه مصيرها البائس على أيديهم، وتكرر ذلك مرات عدة في دمشق وبشكل أكثر وضوحاً في حلب. ولكن يلاحَظ أن المماليك بعد عمليات انسحابهم هذه غالباً ما كانوا يجمعون شملهم ويوَحِّدون صفوفهم ويحققون نصرهم على المغول، لكن هذا يحدث بعد أن يكون المغول قد عاثوا فساداً وخراباً ودماراً في المنطقة التي كانوا يسيطرون عليها [4].

ترتب على عمليات الكر والفر هذه حركة هجرة ونزوح كبيرة في الأوساط الشعبية نحو مصر، تجنباً للبطش المغولي الذي أكثرَ من التخريب والدمار والانتقام والتشفي بأهالي المنطقة المدنيين، وكثيراً ما أدرك المماليك عجزهم (تقصيرهم) هذا فكانوا يأمرون الشعب بالرحيل عن المنطقة المهددة بالخطر المغولي[5].

ويضاف إلى هذه الحروب الخارجية الصراعات والانشقاقات الداخلية في صفوف المماليك بسبب نظرتهم السلبية للسلطة وصراعاتهم عليها، فشهدت الشام ثورات عدة وحركات انفصالية واستقلالية، كما أنها كانت ملجأً للمعارضين من المماليك أنفسهم، واشترك أمراؤها ونوابها بخلع بعض السلاطين وتثبيت حكم البعض الآخر منهم. وزاد الأوضاع الداخلية سوءاً قسوة نظام جباية الضرائب عند المماليك[6].

---

(1) السلطان غازان أو قازان، استلم الحكم بالقوة سنة 694هـ/1295م، واعتنق الإسلام على المذهب الشيعي، وجعل الإسلام الدين الرسمي للدولة، وقطع ما كان يربطه مع وطنه الأم "منغوليا". صبحي: سياسة المغول: ص33. حتي، فيليب وآخرون: تاريخ العرب، دار غندور، ط8، 1990م، ص565.

(2) للمزيد راجع: ذيل مرآة الزمان: كرنكوي: 273/1. ذيل مرآة الزمان: حمزة: 269/1، 273. الدواداري، بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، تح: عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1413هـ/1993م، ص111–114. العمري، ابن فضل الله، ت749هـ: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي– أبو ظبي، ط1، 1423هـ، ج27،ص484–485. موير، وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، تر: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي– القاهرة، ط1، 1415هـ/1995م، ص76–77.

(3) السلوك: 3/55، 60، 63، 74، 88، 90، 98، 105. موير :90. سرور: ص207–212. صبحي: ص55.

(4) بيبرس المنصوري الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تح: سهيل زكار، دمشق، 1425هـ/2005م، ص88–89. ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم: تاريخ الملك الظاهر، تح: أحمد حطيط ، دار فرانزشتايز– فيسبادن، 1403هـ/1983م، ص55–56. ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر: صدق الأخبار– تاريخ ابن سباط، تح: عمر تدمري، جروس برس– طرابلس – لبنان، ط1، 1413هـ/ 1993م، ج 1، ص473–474. عاشور: الأيوبيين والمماليك: ص227. أبو الفداء، إسماعيل بن علي، ت732هـ: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط1، ج4، ص69–70. سرور: ص204–205. طقوش: ص138. سليمان، أحمد: المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس، دار النهضة العربية– مصر، ط1، 1405هـ/1984م، ص94–95. موير: ص89.

(5) أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل، ت665هـ: الذيل على الروضتين، من خلال الموسوعة الشاملة، ج20، ص434. الذهبي، محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر التدمري، دار الكتاب العربي– بيروت، ط2، 1993م، ج52، ص101. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، ت774هـ: البداية والنهاية، تح: عبد الله التركي، دار هجر، ط1، 1418هـ/1997م، ج17، ص738. كذلك راجع: إسماعيل، اكتمال: الحملات المغولية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية على بلاد الشام، دار ومؤسسة رسلان– دمشق، 2008م، ص120.

(6) ذيل مرآة الزمان: حمزة: 454/1–455.

ثانياً: انتقال عجلة الحضارة والعلم من بغداد إلى دمشق واستقرارها في القاهرة:

يلاحظ أن تلك الحقبة النصف الثاني من القرن (السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي) مثلت بداية تفوق مصر العلمي على الشام والعراق، وربما استمر هذا التفوق حتى الوقت الراهن.

فبغداد على الرغم مما وصلت إليه من ضعف واضطراب قبل الغزو المغولي؛ إلا أنها استمرت في الحفاظ على تقدمها الحضاري والعلمي في المنطقة، ودليل ذلك أنها كانت قبلة العلماء، حيث ندر وجود عالِم لم يَقم بزيارتها –آنذاك– فكان ذلك –بحد ذاته– عاملاً من عوامل تضاعف الحركة العلمية بها. إلا أنها تلقّت الضربة الكبرى على يد المغول في سنة 656هـ/1258م فقضت عليها سياسياً وحضارياً، وعاث المغول فيها فساداً وخراباً، ونكلوا بعلمائها بشكل خاص، فيمم الناجون منهم شطر الغرب (الشام ومصر) وبدت حضارتها وكأنها عجلة تسير باتجاه الغرب مروراً بدمشق إلى أن استقر بها الحال في القاهرة، وسيأتي البحث على تفصيل ذلك.

وتغنّى كثير من الباحثين –بما في ذلك باحثي الشام– بإنجازات مصر المملوكية، وما وصلت إليه من تقدم علمي وحضاري رائع، بفضل ما قدمه لها سلاطين المماليك من دعم كبير أدى إلى تحول مصر لمركز استقطاب للعلماء والمهاجرين، وما إلى ذلك من أسباب ستذكر لاحقاً.

ولكن السؤال هنا:

ماذا عن بلاد الشام؟

هل لقيت الاهتمام من قبل سلاطين المماليك كمصر؛ أم لا !؟

هل واكبت مسيرة التطور العلمي في مصر؟.

أو بالأحرى: هل استمرت في تفوقها العلمي على مصر كما كانت عليه في العصر الأيوبي، وبالأخص إذا علمنا أن أول دار للحديث النبوي بُنيت في دمشق في نهاية عهد نور الدين محمود بن زنكي المتوفى سنة 569هـ/1174م[1]، في حين لم يُبن مثل هذه الدار في مصر حتى عهد الملك الكامل في سنة 622هـ/1225م[2].

هل الاجتياح المغولي للمنطقة يعدّ سبباً كافياً لتجمع علماء العراق والشام في القاهرة دون سواها، أم أن هناك أسباب أخرى؟

هل عدم سعي المماليك لاستقرار العلماء في الشام يعزز فكرة أنهم نظروا للشام على أنها ساحة للصراع وقاعدة عسكرية متقدمة لهم باتجاه العدو!؟

وللأسف فإن البحث يضيق عن تفصيل الإجابة على هذه الأسئلة. ولكن يمكن القول أنه لا يخفى ما للمغول من أثر سلبي على الحركة العلمية في بلاد الشام، إذ أن أعمالهم كانت سبباً في توقفها؛ إن لم نقُل تخلفها.

ويتضح ذلك في كتابات اليونيني وغيره من المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث، فعند دخول المغول دمشق سنة 699هـ/1299م احترقت دار الحديث النورية والأشرفية والعادلية الصغيرة ومدرسة القيمازية ودار السعادة والبيمارستان النوري، والأماكن الأفضل حالاً التي نجت من الحرق إلا أنها لم تنجو من النهب والخراب. وهنا يبدي اليونيني أسفه الشديد على الكتب التي وُقِفت على هذه الأماكن ومن ثمَّ أُحرقت أو سرقت أثناء وجود المغول، ثم بيعت– بعد رحيلهم– في أسواق دمشق بأسعار زهيدة[3].

---

[1] للمزيد عن هذه الدار راجع: النعيمي، عبد القادر بن محمد، ت978هـ: الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية –بيروت، ط1، 1410هـ/1990، ص74–84.

[2] فرغلي: ص63.

[3] ذيل مرآة الزمان: حمزة: 283/1، 294.

وهنا نتساءل أين دور المماليك في الحفاظ على هذه الكتب، واسترداد ما سُرق منها؟

ومهما يكن من أمر فإن بلاد الشام تطورت علمياً في عصر المماليك البحرية عما كانت عليه زمن الأيوبيين، إلا أنه كان تطور بحكم الواقع وليس بفضل جهود سلاطين المماليك.

ومقارنة بسيطة بين مصر والشام قبل وأثناء عصر المماليك يظهر أنه تطور بسيط، وربما لا يعد تطوراً بالنسبة لما حدث في مصر التي اكتظت بالعلماء. وإن وجد عدد من المؤرخين في بلاد الشام في تلك المرحلة، فمبرر ذلك هو أن عمق الأحداث السياسية والعسكرية كان في الشام دون مصر، يضاف إلى ذلك الموروث الحضاري التاريخي التي تميزت به بلاد الشام في العصر الأيوبي.

كانت الثقافة السائدة في مصر والشام آنذاك –سواء في المدارس أم في المساجد– هي ثقافة إسلامية خالصة، لم تأذن لها الحكومات فتمتزج بغيرها من الثقافات الأجنبية عن الإسلام[1]، فآل أيوب كانوا على درجة كبيرة من التدين والورع، متمسكين بأهداب الدين، ويخافون الله، ويسعون لعمل الخير ما استطاعوا إليه سبيلا، وذلك واضح في الألقاب التي حملوها، كما ظهر لديهم نوع من التعصب للدين، وذلك بسبب أن الصليبيين قاموا بحربهم ضد المشرق العربي باسم الدين. وورث المماليك هذه النزعة الدينية عن أساتذتهم بني أيوب، وزادت في نفوس المماليك بسبب ما لقيه الإسلام والمسلمين على يد المغول في العراق. ولم تتوقف الحياة العلمية على علوم الدين؛ فمع التقدم والازدهار أصبحت العلوم الدنيوية تماشي العلوم الدينية[2]. ومع هذا فنادراً ما وجد عالم بالعلوم الدينية إلا وله باع طويل في العلوم الدنيوية.

وتميز الأيوبيون عن المماليك بأنهم لم يكتفوا بالتشجيع على العلم والتعليم؛ وإنما انخرطوا في العلم والتعليم فبرز منهم العديد من العلماء، كملك حماة عمر بن شاهنشاه بن أيوب المتوفى سنة 617هـ/1220م، وصاحب بعلبك بهرام شاه بن فرخشاه المتوفى سنة 628هـ/1231م، وأشهرهم المؤرخ أبو الفداء إسماعيل بن علي ملك حماة –آخر ملوك بني أيوب في بلاد الشام–، والمتوفى سنة 732هـ/1231م صاحب كتاب "المختصر في أخبار البشر"[3].

وكانت الرعاية الكبيرة التي قدمها بني أيوب للعلم والعلماء سبباً في جذب العديد من العلماء إليهم، فكان لدمشق في عهدهم جاذبية خاصة، حيث انتقل إليها العديد من علماء شمال العراق، وهاجر إليها العديد من علماء فلسطين وهي تحت الحكم الصليبي، كبني قدامة الذين أنشأوا حي الصالحية بدمشق وبرع منهم العديد من العلماء[4].

ويبدو أن القاهرة لم تكن مركزاً لجذب العلماء آنذاك، فابن عربي تركها وعاد إلى دمشق بعد أن اعتدي عليه بها[5].

وتنعكس الآية في العصر المملوكي فتغدو القاهرة هي المركز الجاذب للعلماء، وتصبح مدرسة الشام موزعة النشاط بين عدد من المدن السورية؛ تبعاً لفقدان الوحدة والاستقرار السياسي بها. ورغم أن القاهرة استأثرت بالنصيب الأوفى من العلم والعلماء؛ إلا أنه وُجد مؤرخين وعلماء كُثر موزعين في عدد من مناطق الشام، كعسقلان وحلب والقدس وبعلبك.

ومهما يكن من أمر فإن مصر في بداية عصر دولة المماليك شهدت تقدماً علمياً وحضارياً وثقافياً كبيراً، وصدق بها المثل الشعبي القائل: "مصائب قوم عند قوم فوائد"، حيث أصبحت الشريان النابض للعالم العربي– الإسلامي، وداراً لخلافته، ومنبع

---

[1] حمزة: الحركة الفكرية: ص171.

[2] شميساني، حسن: مدارس دمشق في العصر الأيوبي، دار الآفاق الجديدة –بيروت، ط1، 1403هـ/1983م، ص38، 272.

[3] راجع فرغلي: ص117–118. عاشور: مصر والشام: ص129.

[4] نيقولا زيادة: ص184–185.

[5] ابن عربي: هو أحد علماء الصوفية، ولد سنة 560هـ/1165م في مرسيه بالأندلس، وقام بجولة كبيرة في العالم الإسلامي، وأخيراً استقر بدمشق، وأتم بها عمله الفكري، إلى أن توفى سنة 638هـ/1240م. للمزيد عنه راجع نيقولا زيادة: ص191.

للعلماء، ومحوراً لنشاط علمي متعدد الأطراف، ولا أدل على ذلك من الثروة العلمية الهائلة التي وصلت من ذلك العصر متمثلة بالمخطوطات التي شملت مختلف العلوم – وبشكل خاص علم التاريخ–.

فما هي الأسباب والعوامل التي أدت إلى ذلك؟؟

ثانياً: عوامل نشاط الحركة العلمية في مصر في بداية عصر دولة المماليك:

أ- هجرة أعداد كبيرة من العلماء إلى مصر لأسباب عديدة منها:

- سقوط بغداد بيد المغول 656هـ/1258م وما تبع ذلك من اضطراب للأحوال السياسية في العراق والشام مقابل استقرارها في مصر بقيادة المماليك لدفة الحكم بها منذ عام 648هـ/1250م. فالاجتياح المغولي للمنطقة تمكن من إلحاق ضربات قوية بعاصمة المسلمين ومركز خلافتهم بغداد، وتابعوا إلى بقية العراق، وأصبحت الشام بين أخذ ورد مع المماليك، فغدت مصر المأمن الوحيد لكل من يريد الأمان.
- قتل العلماء واضطهادهم في العراق، وإتلاف كتبهم العلمية، فعندما خرج الخليفة العباسي المستعصم بالله إلى هولاكو خرج معه 700 راكب من القضاة والفقهاء والعلماء والصوفية وأعيان الدولة، وعندما وصلوا إلى هولاكو أمر بقتلهم مباشرةً؛ باستثناء الخليفة ومعه 17 نفراً أبقاهم مؤقتاً، ومن ثم تم قتل الخليفة ومن معه[1]. وأتى القتل على من أُمسك في بغداد كموفق الدين عبد القاهر بن محمد الفوطي، كان كاتباً شاعراً عالماً باللغة العربية، تم قتله صبراً في بغداد[2]. وكذلك يحيى بن يوسف بن يحيى الصرصري الضرير المادح والعالم باللغة العربية، دخل عليه التتار في بيته فقاتلهم بعكازه وبالحجارة حتى قُتل بعد أن قَتل واحداً منهم وهشَّم آخر[3]. وغيرهم كُثر..

ولم يشف المغول غليلهم بالعلماء بل توجهوا لمكتباتهم وبدؤوها حرقاً أو خراباً أو غرقاً، وأمر هولاكو بإلقاء جميع الكتب التي في دور الخلفاء في نهر دجلة[4]، فكان ذلك كارثة على التراث العربي – الإسلامي والحركة العلمية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لدرجة أن إدوارد براون يقول: **"أما الخسارة التي أصابت الحركة العلمية الإسلامية فلا يمكن وصفها مهما أعملنا في ذلك ضروب الفكر والخيال"[5]**. ومن ثم يمم المغول شطر الشام وألحقوا به ما شابه العراق.

لذلك بدأ العلماء الدين لم تطلهم يد القتل والإجرام بالبحث عن مكان آمن وهادئ لهم، فظهرت أمامهم مصر تحت ظل سلاطينها المماليك. وكان من بين العلماء الذين هاجروا – على سبيل المثال– ابن خلكان الإربلي، ومن حران عائلة ابن تيمية في سنة 667هـ/1269م. ومن حلب إلى مصر –بعد أن أخذ المغول حلب– كان عز الدين ابن شداد الحلبي، صاحب "سيرة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس"، والمتوفى سنة 684هـ/1285م[6]. ومن دمشق إلى مصر كان الكاتب الأديب إسماعيل بن علي بن محمد، المعروف بابن عزّ القضاة، كان من الشعراء المقربين للملك الناصر يوسف، وتوفي سنة 689هـ/1290م[7]. وغيرهم كثر..

---

[1] البداية والنهاية: 358/17.

[2] ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد، ت795هـ: ذيل طبقات الحنابلة، تح: عبد الرحمن العثيمن، مكتبة العبيكان– الرياض، ط1، 1425هـ/2005م، ج4، ص44.

[3] الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت 764هـ: نكت الهميان في نكت العميان، تح: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية –بيروت، ط1، 1428هـ/2007م، ص294–295. ذيل مرآة الزمان: كرنكوي: 257/1.

[4] سليم: عصر سلاطين المماليك: مج3، ص17.

[5] تاريخ الأدب في إيران: ص586.

[6] ذيل مرآة الزمان: كرنكوي: 270/4–271.

[7] ذيل مرآة الزمان: 11/ورقة 28 و+ظ، 35ظ.

- زوال الخلافة العباسية في بغداد وإحيائها في مصر على يد الظاهر بيبرس سنة 659هـ/1261م[1]. وهذه القضية من الأهمية بمكان في العصر الإسلامي، حيث مثلت الخلافة العَلم الذي يستظل ويؤنس به.
- سوء الأوضاع بالأندلس، حيث بدأ الإسبان هجمتهم القوية على الأندلس في بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ولم يأت منتصف هذا القرن إلا وقد تساقطت قواعد الأندلس وثغوره بيد الإسبان؛ باستثناء غرناطة. "**وقد أدى هذا الغزو الإسباني إلى اندثار المعاهد الإسلامية والعلمية، بعد أن كانت عامرة ومزدهرة في إسبانيا**"[2]. بالإضافة لما تعرض له المسلمين من ملاحقات ومضايقات وإجراءات تعسفية بحقهم، فكان من الطبيعي أن يرنوا علمائها بنظرهم إلى مصر.
- ما لاقاه العلماء من حفاوة وتكريم من قبل سلاطين المماليك وأمراؤهم، وبشكل خاص علماء الدين لدرجة أن السلطان لاجين عندما حضر عنده ذات مرة الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد؛ قام إليه وقبل يده، فلم يزد الشيخ على قول "أرجوها لك بين يدي الله"[3].
- الطمع بخيرات مصر الاقتصادية، أو الرغبة في تولي مناصب إدارية وسياسية، حيث وُجِد العديد من العلماء الذين تولوا مناصب إدارية في الدولة.

ب- يضاف إلى هذه الهجرة القسرية (التهجير) الهجرة الإرادية على الجانب الآخر وحرية التنقل والإقامة والأخذ والعطاء والتأثر والتأثير، التي تمتع بها رجال العلم والفكر والأدب في جميع بلدان دولة المماليك، وإن كانت نهاية المطاف إلى القاهرة على الأغلب، وساعدت حرية التنقل هذه على إعادة ربط أجزاء العالم الإسلامي، وتنوع فنون الكتابة لدى العالِم الواحد، مع اتسام الحياة الفكرية جميعها بسمات مشتركة لذلك العصر[4].

ت- الدور الذي شغله سلاطين وأمراء المماليك في بناء الهيئات التعليمية والتشجيع على العلم، فعلى الرغم من أن المماليك كانوا عجم إلا أنه كان لهم دور في تقدم النشاط الفكري في المناطق التي خضعت لهم، حيث انصرفوا إلى بناء الهيئات التعليمية من مدارس ومكاتب ومساجد وربط وزوايا وخانقاهات، وأنشؤوا لها دور الكتب الخاصة بها، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، فكانت هذه الهيئات عاملاً مهماً من عوامل ازدهار الحركة العلمية ومظهراً من مظاهرها.

ومع تأكيد المؤرخين على أن سلاطين المماليك وأمرائهم اكتفوا بالتشجيع على العلم، ولم يبلغوا الدرجة التي وصل إليها الأمراء الأيوبيين من الثقافة والانخراط بالعلم، إلا أن ذلك لا يعني انعدام وجود مَن اهتم منهم بالعلم وشغل به. فنسمع عن الظاهر بيبرس أنه أُولع بسماع التاريخ ومال إلى أهله وقربهم إليه، وكان يقول: "**سماع التاريخ أعظم من التجارب**"[5]. وكذلك الأشرف خليل كان يطارح الأدباء ويجلس بالميدان والقراء بين يديه يقرؤون القرآن الكريم[6]، كما وجد من اشتغل بالفقه والحديث واللغة العربية وغيرها..[7]

---

[1] للمزيد راجع: التحفة الملوكية: ص47–48. البداية والنهاية: 17/425–428. طقوش: ص94–95. زيتون: 29–30.

[2] العصر المفترى عليه: ص96.

[3] حسن المحاضرة: 2/168–169.

[4] الحزوري، حسام الدين: الحركة الفكرية مراكزها في نيابة دمشق في عصر المماليك البحرية، وزارة الثقافة –دمشق، 2011م، ص67.

[5] النجوم: 7/162.

[6] الوافي بالوفيات: 13/251–252..

[7] للمزيد راجع: العصر المفترى عليه: ص103.

ث- الاعتناء باللغة العربية والحفاظ عليها: -كما ذكر سابقاً- فإن سلاطين المماليك أخلصوا في السير على خطا أساتذتهم من بني أيوب، فكما أن بني أيوب لم يحاولوا فرض اللغة الكردية على الشعوب العربية، أيضاً المماليك كانوا كذلك، لا؛ بل تفوقوا على أساتذتهم في هذا الميدان وأبرزوا اهتماماً عظيماً باللغة العربية على الرغم من تحدثهم اللغة التركية والجركسية، والقول بأن مرد ذلك إلى إدراك المماليك لعجز لغتهم عن تلبية متطلبات الملك الواسع – من سياسة وقضاء وعلم وغيرها- هو ضرب من الوهم والخيال، إذ لا يوجد لغة إلا ولديها – على الأقل بنظر أصحابها- قابلية للتطور والاشتقاق والأخذ والعطاء، وتلبية احتياجات متكلميها، ولكن يمكن القول بأن المماليك كانوا يتكلمون عدة لغات، وأنهم لم يحاولوا بالأصل فرض لغتهم على الشعب لإدراكهم عواقب ذلك. وبرز هذا الاهتمام واضحاً وجلياً في مؤسسة ديوان الإنشاء، حيث مثلت مؤسسة ضخمة ثابتة الأركان في العصر المملوكي، ومثَّل الديوان مهمات وزارات الخارجية والثقافة والإعلام في عصرنا، ولم يكن يُسمح باللعمل في هذا الديوان إلا لمن تمكن من اللغة العربية وعلومها ودقائق تفاصيلها[1]. فكان ذلك دافعاً للتنافس بين العلماء في تحصيل علوم اللغة العربية لاحتلال هذا المنصب. ولكن ذلك لا يعني أن اللغة العربية وصلت لمرحلة راقية من التطور، فالاختلاط الكثير والطويل بالأعاجم كان له أثر سلبي عليها، وأدى إلى ظهور العديد من الألفاظ العامية[2]، كما ظهرت بعض الألفاظ الأعجمية حتى في المكاتبات الرسمية، كتعبير "كنداسطيل" الذي ورد في الرسالة التي أرسلها الظاهر بيبرس إلى أمير أنطاكية وطرابلس بوهيموند السادس في سنة 667هـ/1269م وتعني "حاكم القلعة"[3].

ج- الموروث الحضاري في مصر: ومن الطبيعي أن تعتمد كل حضارة على منجزات مَن سبقها.

ح- نضوب المراكز العلمية في الشام والعراق، وتعرضها للخراب والدمار -كما سبق ذكره- فبرزت مصر الأقوى بين هذه المراكز والوارث لها.

رابعاً: العلماء، وحركة التأليف التاريخي أثناء اجتياحات المغول للمنطقة

على الرغم من أن هذه المرحلة (النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي) شهدت سلسلة من الإضرابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وما تلقته البلاد من ضربة كبيرة لحضارتها العلمية على يد المغول؛ فإن ذلك لم يمنع من استمرار الحركة العلمية وبالأخص التاريخية، وذلك لأهمية الأحداث السياسية واضطرابها. وظهر في تلك المرحلة العديد من العلماء من مختلف الاختصاصات يحملون الثقافة المزدوجة – الأيوبية والمملوكية- مع التأكيد على وحدة هاتين الثقافتين.

فلا يمكن عدُّ علماء هذه المرحلة بأنهم إنتاج مملوكي ويحملون ثقافة العصر المملوكي فقط؛ بل إن التأثير الحضاري الأيوبي استمر واضحاً في بداية الدولة المملوكية لِما انشغلت به هذه الدولة من صراعات سياسية وعسكرية في البداية. ومن هؤلاء العلماء نذكر على سبيل المثال:

في الشعر والأدب اشتهر محمد بن سعيد البوصيري المصري، وهو مغربي الأصل إلا أنه نشأ في بوصيري، وله "البردة" المعروفة باسم "الكواكب الذرية في مدح خير البرية"، وتوفي سنة 695هـ/1296م[4].

وكذلك الشاعر سراج الدين عمر بن محمد الوراق، كان كثير النظم عارفاً بالبديع، وتوفي سنة 695هـ/ 1296م[5].

---

[1] كان ممن تولى ديوان الإنشاء أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، وأحمد القلقشندي، ومحي الدين بن عبد الظاهر، غيرهم كُثر ممن يشهد لم بإتقان اللغة العربية والثقافة الواسعة وسعة الاطلاع، ويلاحظ أن أغلبهم كان ممن دوَّن وألّف وكتب. للمزيد راجع: العصر المفترى عليه: ص105.

[2] عاشور: مصر والشام: ص293.

[3] حلّاق: 228.

[4] حسن المحاضرة: 464/1. وأحصى السيوطي في هذا الكتاب العديد من شعراء وأدباء ذلك العصر.

[5] فوات الوفيات: 140/3-141. شذرات الذهب: 753/7.

وشهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي، ولد في حلب وانتقل في صباه مع والده إلى دمشق، يعد من علماء عصره في الفقه والحديث واللغة، كما اشتهر شاعراً وأديباً ومترسلاً، وتعمق بعلوم اللغة العربية حتى استطاع أن يلم بعلومها كافة ويتبوأ منصباً في ديوان الإنشاء، وتوفى سنة 725هـ/1325م[1].

ولكن مهما تطور الأدب في العصر المملوكي فإنه يبقى دون العصر العباسي حيث شهد الأدب فيه عصره الذهبي[2].

وفي مجال علم الشريعة والأصول والفقه والحديث، ظهر ابن بنت الأعز، الذي تولى قضاء الديار المصرية، و توفي في سنة 1267/665[3].

وفي مجال علم اللاهوت والشريعة اشتهر تقي الدين أحمد بن تيمية، وهو حراني الأصل كان قد هاجر مع أسرته إلى دمشق، وله العديد من المؤلفات، وتوفي في سنة 728هـ/1328م.

وفي الطب برز يعقوب بن غانم الموفق السامري، أتقن صناعة الطب علماً وعملاً، ولم يكن بزمانه أعرف منه بقوانين الطب، وكان له حلقة علم لكل من يقصده، وله عدة تصانيف في هذا الميدان، توفي سنة 681هـ/1282م[4]. وكذلك برز أبو الحسن علي بن النفيس، وكان شيخاً للطب في الديار المصرية، وعميداً للمارستان الذي بناه السلطان قلاوون، ووضع عدة مؤلفات، أهمها "التصانيف" و"شرح القانون" الذي صور فيه الدورة الدموية الصغرى، توفي سنة 687هـ/1288م[5].

وكذلك أحمد بن يوسف بن هلال بن أبي البركات الحلبي الشغري، اشتهر في الطب وعمل في القصر السلطاني في القاهرة والمارستان النوري في حلب، ومهر في الأدب والكتابة والشعر، وتوفي سنة738هـ/1337م. وكذلك اشتهر أبو بكر بن المنذر البيطار المتوفى 741هـ/1340م[6].

وكثُر في ذلك العصر أيضاً الاشتغال باللغة العربية وعلومها –كما تقدم ذكره– وأهم من ظهر آنذاك محمد بن مكرّم بن منظور، المصري الإفريقي، وله عدة مؤلفات وعلى رأسها "لسان العرب" و"المعجم الشهير"، بالإضافة إلى أنه شارك في ميدان التأريخ من خلال كتابيه "مختصر تاريخ بغداد" والثاني "مختصر تاريخ دمشق"، وتوفي سنة 711هـ/1311م[7].

هذه عينة بسيطة من علماء ذلك العصر، يضاف إليهم أعداد كبيرة من العلماء من مختلف الاختصاصات كعلوم الطبيعة والفلك والرياضيات وعلم الحيوان والنبات وغيرها من العلوم التي تضيق هذه العجالة عن شرحها[8]، وأهم هذه الاختصاصات على العموم كانت حركة التأليف التاريخي.

حركة التأليف التاريخي:

---

[1] يوسف، أكرم عثمان: في مقدمة تحقيقه لكتابه حسن التوسل إلى صناعة الترسل، دار الرشيد – العراق، 1980م، ص17–19. الديباجي محمد: في مقدمة تحقيقه لكتابه منازل الأحباب ومنازه الألباب، دار صادر –بيروت، ط1، 2000م، ص12–14.

[2] العلبي: ص159.

[3] حسن المحاضرة: 415/1، ويورد السيوطي في هذا الكتاب ترجمة لعدد كبير من العلماء والمشايخ والمحدثين.

[4] ذيل مرآة الزمان: كرنكوي: 179/4.

[5] عودات: 172.

[6] للمزيد عن الأطباء راجع: الحزوري، حسام الدين: دراسة وتحقيق الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، رسالة غير منشورة أعدت لنيل درجة الماجستير بإشراف إبراهيم زعرور، جامعة دمشق، ص110.

[7] أعيان العصر: 269/5–275. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – صيدا، ج1، ص248.

[8] للمزيد عن هذه العلوم راجع: الحزوري: الحركة الفكرية: ص232–260.

لقد اجتذبت بغداد – في عصرها الذهبي– العلماء من كل صقع واتجاه وفي كل اختصاص، وبدت الحركة التأريخية تسير في اتجاه واحد، لكن الأمر تغيَّر عندما بدأ يظهر للوجود العديد من الدول المنقطعة والمنفصلة أو المرتبطة اسمياً مع بغداد، وتعددت اتجاهات الحركة التأريخية، وبدأت تأخذ ملامحها الأساسية، وزادت أهميتها لدرجة أن علم التاريخ غدا جزءً أساسياً من الثقافة العربية الإسلامية.

وساهم التفكك السياسي الذي ساد المشرق العربي قبل عصر المماليك في ظهور العديد من المؤلفات التاريخية – الإقليمية والمحلية– وأتت هذه المؤلفات في محاولة لإثبات الشخصية المحلية وتبرير الانفصال السياسي وتقديم الدعم له شرعياً وتاريخياً، فظهرت عدة كتب من هذا النوع، ككتاب "الروضتين" وكتاب "مفرج الكروب"..

في الشام ظهرت الحركة التأريخية موزعة النشاط بين عدد من المدن الشامية كحران، حمص، الرقة، دمشق، حلب، صفد، عسقلان، بعلبك.. واستمر هذا التوزع في العصر المملوكي، على عكس مصر التي تركزت الحركة التأريخة فيها في القاهرة – طبعاً بسبب وحدتها السياسية.

ويلاحظ أن كثير من المؤرخين في بلاد الشام ومصر كانوا من المحدثين والفقهاء، كما يلاحظ أن النزعة الإسلامية بدت واضحة في المؤلفات قبل العصر المملوكي، وربما أثَّر في ذلك ظروف التحدي الصليبي وما نجم عنه من أمل وطموح العلماء والمؤلفين في مجد إسلامي كبير، وغذَّى هذه النزعة؛ الدولة الأيوبية التي كانت قائمة آنذاك والتي اصطبغت بصبغة إسلامية دينية بحتة[1].

ويمكن القول بأن أبرز العلوم آنذاك – بحق– كان علم التاريخ، حيث ظهر العديد من العلماء من مختلف الاختصاصات، وبشكل خاص التاريخ، وتفردت سورية ومصر بتقديم عدد كبير من علماء التاريخ المخلصين الذين ساهموا – في تلك المرحلة– بصناعة وكتابة التاريخ الإسلامي، فكان الإنتاج الأكبر في ذلك العصر في مجال التأريخ، وظهر للوجود طائفة كبيرة من المؤرخين الذين تركوا تراثاً ضخماً وعدداً كبيراً من الموسوعات التاريخية[2]. فكان ذلك نوعاً من الاستجابة للتحدي الحضاري الذي تعرضت له الأمة الإسلامية، ونوعاً من اليقظة للأخطار التي كادت – في تلك المرحلة– أن تسحق منطقة المشرق الإسلامي كلها.

لقد جاءت هذه الموسوعات التاريخية كمحاولة لإعادة ثقة الأمة بذاتها، والهرب من واقع سيء إلى تاريخ رائع، "**إنها استمساك بالعمود الفقري للجماعة الإسلامية المهددة؛ كي لا تنهار أمام الخطر الخارجي**"[3]، كما أن هذه الموسوعات كانت بمثابة تذكير للأمة بأمجادها السابقة، حيث انتصرت على الأمم الأخرى كافة.

كما أن تلك المرحلة شهدت الانتصار على أكبر عدوين للمسلمين آنذاك – المغول والصليبيون– فكان لا بدَّ من تدوين هذه الإنجازات والتغنّي بها.

وقد اتسمت جميع الكتابات التاريخية في المنطقة العربية بسمات عامة واحدة ومتقاربة، ولكن اختلاف الظروف والأحداث السياسية بين هنا وهناك في بداية عصر المماليك وأوج قوة المغول؛ ساعد على إيجاد بعض الفوارق في الكتابات التاريخية، وبالأخص بين مصر والشام. وقد تكلم عن هذه الفوارق – الصغيرة نوعاً ما– الباحث شاكر مصطفى[4]. ويمكن إيجاز هذه الفوارق في الكتابة التاريخية بين مصر والشام بما يلي:

---

[1] للمزيد عن الحركة التأريخية قبل عصر المماليك راجع: مصطفى، شاكر: التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، ط2، 1983م، ج1، ص219–295.

[2] Gibb: Arabic literature, p.p. 144-146.

[3] فرغلي: ص106.

[4] التاريخ العربي والمؤرخون: 4/8–12.

1- الشاميون كانوا أصح لغة وأسلم بياناً في كتاباتهم التاريخية، ولم ينحدروا إلى الكتابة العامية.

2- كُتاب التاريخ في الشام كانوا في جملتهم من المحدثين والقضاة والفقهاء والمدرسين، وقلَّ فيهم – بعكس مصر – موظفي الدواوين، كما يلاحظ اشتراك بعض أمراء وولاة الشام في الكتابة التاريخية كملك حماة أبي الفداء، وعمر بن شاه هنشاه. يقابل ذلك اشتراك "أولاد الناس" أي أولاد المماليك في الكتابة التاريخية في مصر، كبيبرس المنصوري وغيره..

3- كان مؤرخي الشام أقل إقليمية من المصريين، حيث كانت نظرتهم إلى التاريخ –على الدوام– أوسع من إقليمهم، ولعل السبب في ذلك انفتاح الشام على الجهات الأربع –على عكس مصر.

4- يلاحظ اهتمام الشاميين بالمسائل الدينية وكتب التراجم وتاريخ المدن أكثر من اهتمامهم بالمسائل السياسية وتاريخ الحكام والقضاة، وهي مواضيع برع بها المصريون. وعلى هذا فإن استقرار الحكم السياسي في مصر أدى لظهور كتب التعليم السياسي ونصح الحكام، وذلك بناءً على طلب السلاطين أنفسهم لمثل هذه الكتب.

وعلى هذا فإن الشام التي لم تحو سوى نواب عن السلاطين يأتمرون بأمرهم وينتهون بنهيهم، فإن مؤرخيها لم يهتموا بمثل هذا النوع من التعليم السياسي، وللسبب نفسه فإن الشاميين أيضاً لم يهتموا بكتب التعليم الديواني والإداري، في حين ظهر في مصر موسوعات من هذا النوع، كـ "نهاية الأرب" و"صبح الأعشى" و"مسالك الأبصار". والحُكم نفسه يطلق على ما يتعلق بكتب التعليم العسكري.

وعلى العموم فقد تنوعت الكتابة التاريخية من حيث خصائصها وفنونها وأنواعها، فظهرت المختصرات للتواريخ العامة والتذييل على الكتب السابقة، والتأريخ للأحداث المعاصرة. وكان التذييل على الكتب التاريخية من سمات تلك المرحلة، وهذه الظاهرة (التذييل) لا تعني – بالمطلق– أن صاحب التذييل لا يتمتع بالشهرة والاحترام؛ بل قد يتفوق على من يذيّل لتاريخه، وقد يكون أكثر منه ثقافةً وأوسع اطلاعاً، وربما لديه من المصادر ما يجعل عمله أكثر توثيقاً واتقاناً.

والأمثلة عديدة في تلك المرحلة – على الذين ذيّلوا على كتب ليست لهم– مثل المؤرخ الكبير المنذري المتوفى سنة 654هـ/1256م حيث ذيَّل على "وفيات النقلة" لابن الأكفاني المتوفى سنة 611هـ/1214م، وامتد تذيّله من سنة 581–641هـ[1].

كذلك موسى اليونيني حيث ذيّل على "مرآة الزمان في تاريخ الأعيان" لسبط ابن الجوزي، فامتد تذيِله من سنة 654–711هـ، وقد نال تذيله إعجاب المؤرخين فنقلو عنه الكثير، كما أن هناك من ذيّل على هذا الذيل[2].

كما وجد من المؤرخين مَن ذيّل على مؤلفه نفسه، ومثال ذلك أبو شامة، ت665هـ، حيث ذيّل على كتابه الكبير المعروف بـ "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية"، وامتد الذيل من سنة 590–665هـ.

ووجد من المؤرخين مَن ابتعد عن تسمية مثل ذلك العمل بـ"ذيل" فأطلقوا عليه اسم جديد، كما فعل أبو الفداء ت732هـ، عندما ذيّل على كتاب "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" لابن واصل الحموي ت 697هـ، حيث أطلق عليه اسم "تاريخ أبي الفداء".

[1] فرغلي: ص141.

[2] راجع: عبد الرحمن، فراس: دراسة وتحقيق قطعة من مخطوط ذيل مرآة الزمان، دراسة غير منشورة أعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام بإشراف أ.د. سهيل زكار، جامعة دمشق، 2013م، ص75–97.

وكذلك يلاحظ أن مَن اقتحم ميدان التأريخ ليس العرب المسلمين فحسب؛ بل تنوع أصل ومذهب مقتحميه، فظهر على سبيل المثال العالم المسيحي بطرس بن الراهب القبطي المصري ت أواخر ق 7 هـ، حيث كتب في تاريخه منذ بدء الخليقة إلى زمانه[1]. وكذلك العالم السرياني غريغريوس ابن العبري ت685هـ، في كتابيه "تاريخ الزمان" و"مختصر تاريخ الدول".

وكذلك ظهر من المماليك الترك بيبرس بن عبد الله المنصوري الخطائي الدواداري ت 725هـ، كان قد اشتراه الملك المنصور قلاوون وصار من مماليكه وكبار رجال دولته حتى تولى نيابة السلطنة، ووضع عدة مؤلفات مهمة منها: "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" و"التحفة الملوكية" و"مختار الأخبار".

يضاف لهؤلاء المؤرخين عدد كبير من المؤرخين العرب وغير العرب، مسلمين وغير مسلمين، ما تعجز هذه العجالة عن ذكرهم. وتعد المؤلفات غير العربية الإسلامية من الأهمية بمكان، إذ أنها جاءت بأسلوب واضح وبسيط وفصيح، كما أنها أعطت صورة عن وجهة نظر قوم كاتبيها للأحداث.

الخاتمة:

لا يمكن وضع حدود زمنية لتطور الحياة العلمية، فهي سائرة دون توقف، وإن اعترتها بعض الكدرات. كما لا يمكن الفصل بين الحياة العلمية في نهاية الدولة العباسية والأيوبية وبين الحياة العلمية في بداية الدولة المملوكية وأثناء اجتياحات المغول للمنطقة العربية وبثهم للخراب والدمار فيها، فهي متشابهة ومتكاملة إلى حد ما.

ومن خلال الموازنة بين الشام ومصر آنذاك نستنتج أن مصر شهدت في هذه المرحلة المدروسة استقراراً نسبياً، وتقدماً علمياً وحضارياً وثقافياً كبيراً، وأصبحت الشريان النابض للعالم الإسلامي، وداراً لخلافته، وملاذاً لعلمائه، ومحوراً لنشاط علمي متعدد الجوانب، وأصبحت القاهرة قِبْلَةَ العلماء بدلاً من بغداد، وتفاعل سلاطين المماليك مع هذا فأكرموا العلماء وكرَّموهم، ودعموا الحركة العلمية، وأوقفوا عليها الكثير من الأوقاف.

أما فيما يتعلق ببلاد الشام فعلى الرغم من أنها لم تشهد استقراراً في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، واستمرت فيها حركة الهجرة والنزوح حتى معركة شقحب سنة 702هـ/1302م، إلا أنها استمرت بنشاطها العلمي، وأنتجت من العلماء والأدباء ما لا يقل أهمية عن مصر، بل ربما تفوقت عليها في ميدان التصنيف التاريخي.

❖ **المصادر والمراجع**

1. ابن تغري بردي، يوسف، ت874هـ: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية– بيروت، ط1، 1413هـ/1992م.
2. بيبرس المنصوري الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تح: سهيل زكار، دمشق، 1425هـ/2005م.
3. ابن الجزري، محمد بن إبراهيم، ت739هـ: حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه– المعروف بتاريخ ابن الجزري، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية– صيدا وبيروت، ط1، 1419هـ/1998م .
4. ابن أبي حجلة، أحمد بن يحيى التلمساني، ت 776هـ: سكردان السلطان، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي– القاهرة، ط1، 1421هـ/2001م.
5. الدواداري، أبي بكر بن عبد الله بن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر– الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تح: سعيد عاشور، القاهرة، 1391هـ/1972م.

الدواداري، بيبرس المنصوري ت725هـ:

[1] معجم المؤلفين: 52/3.

6. التحفة الملوكية في الدولة التركية، تح: عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1407هـ/1987م.
7. مختار الأخبار، تح: عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1413هـ/1993م.
8. الذهبي، محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر التدمري، دار الكتاب العربي– بيروت، ط2، 1993م.
9. ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد، ت795هـ: ذيل طبقات الحنابلة، تح: عبد الرحمن العثيمن، مكتبة العبيكان– الرياض، ط1، 1425هـ/2005م.
10. ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر: صدق الأخبار– تاريخ ابن سباط، تح: عمر تدمري، جروس برس– طرابلس – لبنان، ط1، 1413هـ/ 1993م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت911:

11. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية– مصر، ط1، 1387هـ/1967م.
12. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية –صيدا.
13. أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل، ت665هـ: الذيل على الروضتين، من خلال الموسوعة الشاملة.
14. ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم: تاريخ الملك الظاهر، تح: أحمد حطيط ، دار فرانزشتايز– فيسبادن، 1403هـ/1983م.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت764هـ:

15. أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد وآخرين، دار الفكر المعاصر– بيروت ودمشق، ط1، 1418هـ/1998م.
16. الوافي بالوفيات، أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث– بيروت، 1420هـ/2000م.
17. نكت الهميان في نكت العميان، تح: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية –بيروت، ط1، 1428هـ/2007م.
18. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد، ت1089هـ: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير– دمشق وبيروت، ط1، 1406هـ/1986م.
19. العمري، ابن فضل الله، ت749هـ: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي– أبو ظبي، ط1، 1423هـ، ج27.
20. أبو الفداء، إسماعيل بن علي، ت732هـ: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط1،
21. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، ت774هـ: البداية والنهاية، تح: عبد الله التركي، دار هجر، ط1، 1418هـ/1997م.
22. الكتبي، ابن شاكر، صلاح الدين محمد، ت764هـ: فوات الوفيات، تح: إحسان عباس، دار صادر– بيروت، ط1، 1974م.

المقريزي، أحمد بن علي، ت845هـ:

23. السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عطا، دار الكتب العلمية– بيروت، ط1، 1418هـ/1997م.
24. المقفى الكبير، محمد اليعلباوي، دار الغرب الإسلامي– بيروت، ط1، 1411هـ/1991م.

اليونيني، قطب الدين موسى، ت726هـ:

25.ذيل مرآة الزمان، تح: حمزة عباس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2007م.
26.ذيل مرآة الزمان، تح: سالم كرنكوي، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة، ط2، 1413هـ/1992م، ج2.
27.مخطوط ذيل مرآة الزمان: نسخة جامعة ييل- أمريكا، رقم H 139، 140، ج11.

مراجع عربية:

28.إسماعيل، اكتمال: الحملات المغولية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية على بلاد الشام، دار ومؤسسة رسلان- دمشق، 2008م.
29. حتي، فيليب وآخرون: تاريخ العرب، دار غندور، ط8، 1990م.
30. الحزوري، حسام الدين: الحركة الفكرية مراكزها في نيابة دمشق في عصر المماليك البحرية، وزارة الثقافة –دمشق، 2011م.
31. الحزوري، حسام الدين: دراسة وتحقيق الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، رسالة غير منشورة أعدت لنيل درجة الماجستير بإشراف إبراهيم زعرور، جامعة دمشق.
32. حمزة، عبد اللطيف: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر العربي- مصر، ط1، 1947م.
33. الديباجي محمد: في مقدمة تحقيقه لكتابه منازل الأحباب ومنازه الألباب، دار صادر –بيروت، ط1، 2000م.
34. زكار، سهيل: العالم الإسلامي في العصر المغولي والأحلاف الصليبية المغولية، كتاب لم ينشر بعد.
35. زيادة، نقولا: دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر- بيروت ونيويورك، 1966م.
36. زيتون، عادل: تاريخ المماليك، جامعة دمشق.
37. سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي- مصر.
38. سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب- الجماميز- القاهرة.
39. سليمان، أحمد: المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس، دار النهضة العربية- مصر، ط1، 1405هـ/1984م.
40. شميساني، حسن: مدارس دمشق في العصر الأيوبي، دار الآفاق الجديدة –بيروت، ط1، 1403هـ/1983م.
41. الصّلابي، علي محمد: المغول بين الانتشار والانكسار، الأندلس الجديدة- مصر، ط1، 1430هـ/2009م.
42. طقوش، محمد سهيل: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس- بيروت، ط1، 1418هـ/1997م.
43. عاشور، سعيد عبد الفتاح: الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية- القاهرة، 1996م.
44. عاشور، سعيد: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1963م، ج2، ص1052-1097.
45. عبد الرحمن، فراس: دراسة وتحقيق قطعة من مخطوط ذيل مرآة الزمان، دراسة غير منشورة أعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام بإشراف أ.د. سهيل زكار، جامعة دمشق، 2013م.
46. العلبي، أكرم: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للطباعة- دمشق، ط1، 1402هـ/1982م.
47. عودات، أحمد، وآخرون: تاريخ المغول والمماليك، مكتبة الدراسات الاجتماعية.
48. فرغلي، إبراهيم: الحركة التاريخية في مصر وسورية، العربي للنشر والتوزيع- القاهرة، ط1، 2000م.
49. كحالة، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني، ت1408هـ: معجم المؤلفين، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي- بيروت.

50. محمد، صبحي: سياسة المغول الايلخانيين تجاه دولة المماليك في مصر والشام، العربي للنشر والتوزيع– القاهرة، 2001.
51. مصطفى، شاكر: التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، ط2، 1983م.
52. النعيمي، عبد القادر بن محمد، ت978هـ: الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية –بيروت، ط1، 1410هـ/1990.
53. النهار، عمار: العصر المفترى عليه– عصر المماليك البحرية، دار النهضة– دمشق، ط1، 1428هـ/2007م.
54. يوسف، أكرم عثمان: في مقدمة تحقيقه لكتابه حسن التوسل إلى صناعة الترسل، دار الرشيد – العراق، 1980م.
55. براون، إدوارد جرانفيل: تاريخ الأدب في إيران– من الفردوسي إلى السعدي، تر: إبراهيم الشواربي، مكتبة الثقافة الدينية –القاهرة، ط1، 1424هـ/2004م.
56. الفارس الداوي، جيرارد أوف مونتريل: أعمال القبارصة، تر: سهيل زكار، دار التكوين– دمشق، ط1، 2008م.
57. موير، وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، تر: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي– القاهرة، ط1، 1415هـ/1995م.
58. Gibb, H. A. R: Arabic literature an introduction, London Oxford– Newyork, second edition, 1963.